مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

مشرع الرملة من الإنشاء إلى الإخلاء
قراءة في التاريخ العسكري للمغرب الحديث

د. ميلود سوالمة
دكتوراه في التاريخ المعاصر
كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّص

يتحدث المقال عن موقع مشرع الرملة الذي تم تأسيسه من طرف السلطان المولى إسماعيل سنة ١٦٧٨م، ويعتبر الموقع أكبر تجمع عسكري في تاريخ المغرب، لكونه كان يحتضن عددًا مهمًا من الجنود السود (عبيد البخاري)، كما يتحدث عن الأسباب التي كانت وراء هذا الاسم أي (مشرع الرملة)، من خلال استعراض مجموعة من الافتراضات لمجموعة من المؤرخين حول الموقع الفعلي لمشرع الرملة، كما سنتحدث بإسهاب عن الظروف الجيو تاريخية التي ساهمت في إنشاء هذا المركز بهذا المكان المحاذي للساحل، حيث التهديد البرتغالي، ووسط القبائل السائبة مثل زمور وبني احسن، لننهي المقال بالحديث عن الأسباب التي ساهمت في إخلاء هذا الموقع الذي عمر لمدة سبعين سنة تقريبًا. فبقدر الحسنات التي كانت لهذا الموقع خلال الفترة الإسماعيلية والمتمثل في استتباب الأمن الداخلي وردع الهجوم الخارجي، ودعم السلطة المركزية للمخزن، فقد كانت له مساوئ كثيرة كذلك، خاصةً بعد وفاة صاحب الفكرة والمشروع ألا وهو السلطان المولى إسماعيل، حيث بوفاته كانت نهاية ميلاد أفضل وأنجح تجربة عسكرية شهدها المغرب الحديث، والمتمثلة في معسكر مشرع الرملة الذي قدم خدمات جليلة لأمن واستقرار المغرب.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٦ فبراير ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢٨ مارس ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

مشرع الرملة؛ عبيد البخاري؛ المولى إسماعيل؛ منطقة الغرب؛ بني احسن

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/KAN.2024.360911

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

ميلود سوالمة. "مشرع الرملة من الإنشاء إلى الإخلاء: قراءة في التاريخ العسكري للمغرب الحديث".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الرابع والستون؛ يونيو ٢٠٢٤. ص ١٧٣ – ١٨٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: soualmayat@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

شكلت منطقة الغرب بحكم موقعها الاستراتيجي همزة وصل تربط شمال المغرب بجنوبه، إلى جانب مؤهلاتها الطبيعية المهمة والمتمثلة في امتداد سهل الغرب وخصوبة تربته وإطلاله على المحيط الأطلسي. كما تعتبر منطقة الغرب طريق عبور واستقرار العديد من الحضارات والدول التي تعاقبت على حكم المغرب، مما جعلها خزانًا حضاريًا ضم مآثر تاريخية ومواقع أركيولوجية تغطي مختلف العصور التاريخية، وتشهد على الماضي الزاهر الذي عرفته المنطقة.

ومن مميزات المنطقة كذلك، هو كونها تختزل كنه حضاري وتاريخي، والمتمثل في تنوع المآثر التاريخية بناصا، تموسيدا، غيغا ومشرع الرملة[١]، الذي هو موضوع دراستنا. فما هو المجال الذي احتضن موقع مشرع الرملة؟ وما الظروف التاريخية التي ساهمت في إنشائه؟ وما سبب الاخلاء؟

أولاً: دراسة حول تسمية الموقع

تعددت الافتراضات لدى المؤرخين والدارسين[٢] حول الموقع الحقيقي والفعلي لمشرع الرملة، وإذا عدنا إلى الخرائط الطبوغرافية، نجد في خريطة سيدي يحيى الغرب موقع يحمل اسم مشرع الرملة على بعد ٤ كلم جنوب المدينة، ونجد في خريطة المعمورة موقعين يحملان علامة الأطلال بكل من دوار أولاد بوشيبة (بناية الحمام[٣]) وأولاد لحسن وأولاد كريش (دار الماحيا) كما توجد آثار أخرى بأولاد بنعيش حيث يوجد آثار مسجد يعود إلى العهد الاسماعيلي. كما عثرنا صدفة على طول المسافة بين الحمام ودار سالم بالقرب من سيدي سعيد على مقبرة جماعية يعود تاريخها إلى سنين خلت، قد تكون خلال عهد تواجد العبيد بالمنطقة أو قبله، والمسافة الفاصلة بين دار الماحيا ودار سالم هي ٥ كلمترات، والسؤال المطروح أيهما يمثل معسكر مشرع الرملة، دار الماحيا أم دار سالم أم أوسع من ذلك بكثير؟

فحسب المعطيات التي توصلنا إليها فالمشرع كان يمتد على مساحة شاسعة حددها بعض الباحثين من سيدي يحيى وسيدي سليمان الحاليتين[٤] وغالب الظن أنه كان يمتد على مسافة تكاد تشمل المجال الفاصل بين المدينتين السالفتين، وتصل إلى واد بهت حيث المساحة الشاسعة والأراضي الخصبة والمنبسطة، وقد جاء هذا الانتشار بفعل مزاولة عبيد المعسكر للنشاط الفلاحي[٥]، إذ كان على ما يبدو يتشكل من مجموعة من القرى. غير أن هذا المجال الشاسع كان له مركز يعرف بمشرع الرملة، وهو مركز قديم يرجع تاريخ تأسيسه قبل الدولة العلوية، وقد كان هذا المركز يتخذه المجاهدون مكانا للتجمع والانطلاق إلى العمليات الجهادية ضد الغزو النصراني للسواحل المغربية وذلك طيلة القرن ١٧م[٦]. فبتاريخ ١٥ رمضان (١٠٤٠هـ/١٦٣٠م)، كتب المجاهد العياشي إلى السلطان السعدي ما يلي: "فلقيناهم في السابع من رمضان وكتبنا هذا ومضارب المجاهدين بمشرع الرملة، وإقامتهم بالمكان قدر الإمكان، يترقبون انتهاز فرصة في العدو، ويختفون هنالك ليكون لكلمة الله الظهور والعلو"[٧].

كل هذه الأسباب حملت السلطان المولى إسماعيل لاستغلال هذه السمعة الجهادية التي أضحى يعرف بها هذا المركز، لذلك جعله نقطة انطلاق الجيش المغربي إما لتهدئة القبائل أو لمواجهة التهديد الأيبيري، وبذلك تم تأسيس أكبر تجمع للجنود السود بالمغرب في المنطقة[٨]. أما أهمية هذا المركز الجهادي فتتجلى في كونه قريب من العاصمة مكناس، وكذا السواحل المغربية التي كانت مهددة بالغزو النصراني طيلة القرنين ١٦ و١٧م، بالإضافة إلى وقوع المنطقة داخل مجال سهلي كثير الموارد المائية، وكثيف من حيث الغطاء النباتي، كما أن المنطقة آنذاك كانت شبه خالية من السكان.

ومعلوم أن المشرع ذو دلالة جغرافية، لكونه يشير إلى تلك النقط القابلة للعبور عبر الأودية والأنهار، وهي متعددة بمنطقة الغرب، مثل مشرع بودرة مشرع بلقصيري ومشرع الجمالة[٩] .. أما المشرع الذي هو قيد دراستنا يتحدد جغرافيا من نقطة التقاء وادي سمنطو وواد تيفلت بالقرب من الشنانفة لحمر، وعلى طول الطريق السلطاني والتجاري الذي يربط بين الرباط من جهة ومكناس من جهة ثانية، هذا الطريق الذي يخترق أراضي بني احسن ثم قنطرة الفوارات مرورا بسلا فالرباط.

تنتشر بالمنطقة بنايات القواد الذين عاصروا تواجد العبيد بالمنطقة، مثل دار سالم، دار بالعامري، ودار الكداري. وقد حافظ الموقع على بعض بناياته إلى حدود بداية القرن ٢٠م[١٠]، لكن الغريب أن موقع دار سالم لم يحافظ على استمراريته، كموقع تاريخي وعسكري وكوظيفة سكنية كما هو الشأن بالنسبة لسالفي الذكر. عند الاقتراب من المنطقة والحديث إلى الساكنة المحلية ينبه إلى وجود تسمية أخرى للمشرع ألا وهي "المحلة". وهنا يبرز التعبير التاريخي المرتبط بالتحركات السياسية والعسكرية للمخزن المرتبط أساسًا بالحركات السلطانية، الشيء الذي يدعو إلى النبش وسبر أغوار هذه التسمية ذات الأبعاد العسكرية[١١]. ومن خلال دراستنا الميدانية لموقعي كل من مدينة سيدي يحيى الغرب وغابة المعمورة، نجد أن مشرع الرملة يوجد في الجنوب الغربي لواد سبو، وهي منطقة تقع في سهل الغرب، وهو سهل منبسط مع وجود بعض الهضاب المنخفضة.

يوجد موقع مشرع الرملة والديوان على بعد ٣ كيلومترات تقريبا نحو الجنوب من مدينة سيدي يحيى الغرب، أما حدود الموقع فيحده من الشمال دار الكداري، أما من الغرب فيحده وادي سمنطو، في حين يحده من الناحية الجنوبية تيفلت، ومن الجهة الشرقية نجد دار يلعامري وسيدي سليمان)، وتبقى هذه الحدود تقريبية نظرا للخراب الذي تعرضت له بنايات المشرع صعب الحصول على بعض الآثار المادية له. ويقع مشرع الرملة حسب الإحداثيات الجغرافية بين خطي طول ٦,١٩ و٦,٢٤ غرب خط غرينتش وبين خطي عرض ٣٤,١٢ و٣٤,٢٢ شمال خط الاستواء. كما تخترق الموقع مجموعة من الأودية من الجنوب في اتجاه الشمال مثل واد تيفلت وواد اسمنطوا بالإضافة إلى واد الحيمر وواد بهت.

ثانيًا: الظروف التاريخية لإنشاء مشرع الرملة

بحكم مجاورة منطقة الغرب للساحل الأطلسي، فقد كان لقبائله حضور قوي ودائم في مواجهة المد الأيبيري والدفاع عن حوزة البلاد والعباد، وذلك منذ مطلع القرن ١٥م، الذي يؤرخ لبداية الغزو النصراني المكثف والمتواصل للسواحل المغربية، وكان من الضروري أن يتزايد الدور الجهادي لمختلف قبائل الغرب، كلما أصبح الخطر البرتغالي أكثر تهديدا لهم. ولهذا لا نجد صعوبة في تفسير الحضور المتميز لقبائل الغرب في مجاهدة النصارى خلال القرن ١٧م، وقد ظل الساحل المحاذي لمنطقة الغرب خارج نفوذ الهيمنة البرتغالية طيلة القرنين ١٥ و١٦م، بل فشلت كل المحاولات الهادفة إلى احتلال مدينة العرائش والمعمورة[١٢].

غير أن تراجع السلطة السعدية إثر موت أحمد المنصور الذهبي ودخول أبنائه في صراع على خلافته، مكنت الإسبان من تحقيق ما فشلت فيه البرتغال، حيث استغل الملك الإسباني فرصة استغاثة المأمون به ليتسلم منه مدينة العرائش سنة ١٦١٠م، كما استغلت إسبانيا الفراغ السياسي الناتج عن تفكك السلطة السعدية، فقامت بالاستيلاء على حصن المعمورة في غشت سنة ١٦١٤م[١٣]. ويصعب إلى حد بعيد وضع تاريخ محدد وواضح لبداية تواجد العبيد السود بمشرع الرملة، ويعتقد أن هذا التواجد كان خلال العقد الأول من القرن ١٢ للهجرة[١٤]. وشكل أوائل السود القادمين إلى مشرع الرملة نواة تأسيس جيش عبيد البخاري، واستمر هذا المركز يستقبل السود والحراطين الذين تم تمليكهم أثناء الجمع الثاني للعبيد، أي الجمع القسري تمييزًا له عن الجمع التطوعي الأول[١٥].

ظل مشرع الرملة قبلة أغلب المنخرطين من المدرسة التكوينية للأطفال السود بمكناس[١٦] إلى أن أصبح جيش عبيد البخاري المقيم بمشرع الرملة يعد أقوى جهاز عسكري داخل التنظيم العسكري الاسماعيلي. وبحكم طبيعة المادة المصدرية المتوفرة لدينا حاليا، فيستحيل وضع إطار دقيق لتطور هذا الجند من الناحية الكمية، فإذا استثنينا إشارة إسطل التي جعلت عدده يفوق ٢٠٠٠٠ رجل عام ١١١١ هجرية/ الموافق لـ ١٦٩٩ م فإننا لا نعرف إلا بعض التقديرات حول الحصيلة النهائية لهذا الجيش. فحسب عبد السلام العلوي كان عدده يزيد عن ٤٠٠٠ جندي، في حين رأى القادري أن عدد العبيد الذين تركهم المولى إسماعيل بمشرع الرملة كان لا يقل عن ٦٠٠٠٠ مقاتل، أما الزياني فجعلهم

٧٠٠٠٠ عبد، بينما اقترح جوزيف دوليون رقم ٥٠٠٠٠ مقاتل كمجموع لهذا الجيش. ونميل إلى الاعتقاد أن الرقم الأخير هو الأقرب إلى الصواب نتيجة توافقه مع مجموعة من المؤرخين الذين عايشوا الفترة وكتبوا عنها.

وقد جاءت فكرة إنشاء مشرع الرملة على خلفية تحرير قصبة المهدية، إذ سيختار المولى إسماعيل قاعدة لهذا الحدث، ووقع الاختيار على هذا الموقع لما له من جوانب إيجابية سواء على مستوى الموقع الجغرافي أو القرب إلى أماكن الضغط النصراني. ومن هذه الجوانب نجد:

عسكريًا واستراتيجيًا: يتموقع مشرع الرملة في مكان مهم جدا، فهو قريب من موقع المهدية الذي كان محط تهديدات النصارى، إذ لا يبعد عنه سوى بـ ٣٠ كلم، كما أن المشرع يوجد داخل غابة آمنة يصعب التوغل إليها، بالإضافة إلى قرب الموقع من العاصمة مكناس إذ لا تتجاوز المسافة حوالي ٤٠ كلم[١٧].

اقتصاديًا: أنشئ الموقع في مكان شاسع عبارة عن سهل يزخر بثروات مائية ونباتية مهمة مثل: واد الحيمر وواد اسمنطو، إضافة إلى وجود عدة ضايات مثل ضاية قرايو، ضاية عوا وضاية الزرزور.. كما تتوفر المنطقة على كمية مهمة من النباتات والغلات الطبيعية بشتى أنواعها.

بشريًا وسياسيًا: يتموقع مشرع الرملة على مقربة من مجموعات قبلية مخزنية، مثل قبيلة بني احسن وقبيلة الشراردة، كما يوجد بالقرب من المدن الإدارية الكبرى كمدينتي سلا ومكناس[١٨].

كل هذه الاعتبارات الاقتصادية والجهادية للموقع، جعلت السلطان المولى إسماعيل يختاره كموقع لتجميع العدد الهائل من جيش العبيد، بالإضافة إلى حسنات الموقع السابقة فهو يوجد على مقربة من الساحل، إذ يسهل حشد الجيوش في أقل مدة ممكنة وبطريقة جد سلسة أمام كل تهديد نصراني مفاجئ.

ويمكن القول بأن موقع مشرع الرملة لم يأت اختياره بمحض الصدفة، بل جاء اختياره لاعتبارات عسكرية وسياسية واقتصادية محضة، كما أن الموقع لم يكن مؤهلا لجلب العبيد فقط، بل كان قادرًا على الاحتفاظ بهم لأطول مدة زمنية ممكنة.

ثالثًا: جلب جيش عبيد البخاري إلى الموقع

قبل الحديث عن جلب العبيد إلى مشرع الرملة، خاصة خلال فترة حكم المولى إسماعيل لابد من الرجوع إلى الفترة التاريخية التي سبقت تولي هذا السلطان مقاليد الحكم في عهد الدولة العلوية، وما نقصده هنا هو جهاد كل من السلطانين أحمد المنصور الذهبي خلال العهد الذهبي للدولة السعدية، بالإضافة إلى مولاي علي الشريف في ناحية أكدج من بلاد السودان. وقد جاء هذا التوسع لعدة اعتبارات؛ منها ما هو ديني حيث نشر الإسلام واستلهام ثقافة الفتوحات الإسلامية التي تهدف إلى نشر الديانة السماوية في صفوف الشعوب المجاورة[١٩]، أو لهدف توسعي الغرض منه جلب المواد النفيسة من المناطق البعيدة.

وما يهمنا نحن هنا هي فترة حكم المولى إسماعيل خلال العهد العلوي، الذي يعتبر نموذج يحتذى به في تنظيم الجيش وتطويعه، حيث عمل على إنشاء جيش نظامي بمواصفات جديدة مستلهما ذلك من بعض التنظيمات الأجنبية وخاصة الإمبراطورية العثمانية في جيشها المسمى بالإنكشارية. فكيف تم تجميع جيش عبيد البخاري بمشرع الرملة؟ وما السبب في تسميتهم بهذا الاسم؟

لقد عمل السلطان المولى إسماعيل على تكوين جيش نظامي[٢٠] خاص بالعبيد، الذي يعد من أعظم الجيوش التي عرفها تاريخ المغرب، وقد ساعد المولى إسماعيل في جمع العبيد كاتبه عمر بن قاسم المراكشي المعروف بعليليش، حيث كان والده كاتبا لأحمد المنصور، سلطان الدولة السعدية، ويتوفر هذا الأخير على كناش عبيدي يضم أسماء العبيد الذين كانوا في خدمة المنصور الذهبي خلال فترة حكم الدولة السعدية، حيث أمره المولى إسماعيل بجمع ما يجده منهم ومن ذريتهم، خاصة إذا علمنا أن أغلبهم كانوا متفرقين بأحواز مراكش وقبائل الدير[٢١].

ساهمت هذه العملية في تجميع ما يفوق ١٢,٠٠ فردا سنة ١٠ هـ/١٦٧٩ م[٢٢]، حيث تم تسجيلهم في دفتر خاص بهم، ويقول الناصري متحدثا عن ظروف الجمع " ... فأخذ عليليش يبحث عنهم بمراكش وينقر

عن أنسابهم إلى أن جمع من بها، ثم خرج إلى الدير فجمع من وجد به، ثم سار إلى قبائل الحوز فاستقصى من فيها حتى لم يترك بتلك القبائل كلها اسودا، سواء كان مملوكا أو حرطانيا وحر أسود. واتسع الخرق وعسر الرتق فجمع في سنة واحدة ٣٠٠٠ رأس، منهم المتزوج والأعزب، وكتبهم في دفتر خاص، وبعث به إلى السلطان وأعجبه ذلك، فكتب إليه يأمره بشراء الإماء للعزاب منهم، ويدفع ثمن المماليك منهم إلى ملاكهم، ويكسوهم من أعشار مراكش ويأتيه بهم إلى مكناسة".[٢٣]

وقد عمل المولى إسماعيل من جهته على مضاعفة جهوده لجمع أكبر عدد ممكن من العبيد، إذ كاتب عماله بمختلف القبائل والمناطق وأمرهم بجمع العبيد من مختلف حواضر المغرب، وذلك بمقابل حدده في ١٠ مثاقيل لكل عبد. وقد جمع العمال من العبيد حوالي ٣٠٠٠ بالإضافة إلى ٢٠٠٠ كان قد جمعها محمد بن العياشي المكناسي، الذي تم تكليفه هو الآخر بجمع العبيد من قبائل الغرب وبني احسن. وهكذا إذن كانت أولى طلعات العبيد الذين تم جمعهم حوالي ٨٠٠٠ أنزلها السلطان بمحلة مشرع الرملة بأحواز، مكناس فسلحهم وكساهم وعين عليهم القواد.

رابعًا: الصراع حول النفوذ والاتجاه نحو إخلاء الموقع

تشير أغلب المصادر التاريخية إلى أنه بعد وفاة المولى إسماعيل سنة ١٧٢٧م، وصل مجموع جنود الجيش البخاري إلى ١٥٠,٠٠٠ أكثرهم متمركزون بمشرع الرملة وبوفاته يكونوا هذا الجيش قد بسط نفوذه الاجتماعي على سهل سايس والغرب الذي اعتاد مؤرخوا المغرب تسميتهم بجند رمل، والذين سيصبحون بعد وفاة المولى إسماعيل أهم قوة عسكرية واجتماعية بارزة بالمغرب، كان لها الدور البارز في حالة الفوضى وحروب النزاع على الملك من قبل ورثة عرش المولى إسماعيل.

وبحكم حساسية هذه المرحلة التاريخية وأهمية "المشروع الجديد"، فقد تحدث عنه العديد من المؤرخين المغاربة والأجانب، باعتبار معسكر جيش البخاري "بمشرع الرملة"، كان من أولى المدارس العسكرية التي عرفها تاريخ المغرب. وستكون بالتالي هذه الفترة حاسمة بالنسبة للمولى إسماعيل حيث تحكم العبيد في جهاز الدولة إلى درجة أصبح معها المغاربة يرددون مقولة شهيرة للولي الصالح سيدي عبد الرحمان بنمسعود. يقول عن علاقة العبيد بالمولى إسماعيل: "الديوان والشوار عند أسمقال"، ويعني أسمقال "الحراطين بالسوسية"[٢٤].

لقد تضافرت عدة أسباب جعلت العبيد يعملون على إخلاء مدينتهم على أن أهمها[٢٥] هو عجز العبيد عن مواجهة القبائل المجاورة لمشرع الرملة مثل بني احسن وسفيان وبني مالك وزمور الذين أكثروا النهب والتخريب فيهم، فخرجوا تاركين وراءهم دورهم وقصورهم. قال الضعيف: " وقد مكثوا بمشرع الرملة نحو ٣٨ سنة، إلى أن أخرجتهم قبائل بني احسن بكثرة الحروب وضيق بهم الأرض حتى كانوا يفزعون من حس الريح إذا نفخ حولهم في عشوب الأرض كالكلخ والبرق، ومشردون وينفرون ويهربون ويقولون: إن بني احسن قد أتت إلينا، وكانوا يخطفون لهم الخيل والإبل والبقر والغنم، كما كانوا يخطفون لهم البنين والبنات، ويطلقون النار فيهم إلى أن خرجوا منها، وتركوا أموالهم وصناديقهم وسلاحهم وهربوا بنفوسهم إلى مكانسة وتتبعتهم بني احسن فنهبوا جلهم، ومنهم تجهزوا وظفروا بسلاحهم وعدتهم ومالهم وصاروا عبرة للمعتبرين، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ... "[٢٦]. وخلال هذه المرحلة أصبح هذا الجيش عنصرا من عناصر الفوضى والاضطرابات، فدخلت علاقة عبيد البخاري مع الأمراء والسلاطين الطامعين في الحكم من جهة، والقبائل من جهة أخرى في حلقة مفرغة لمدة تناهز ثلاثين سنة[٢٧]، وفي هذه الفترة بدأ العبيد يخرجون من قلاعهم، خاصة من مشرع الرملة ناشرين الرعب والنهب في الطرق والقبائل التي يمرون منها، خاصة التي توجد في الطريق الرابط بين مشرع الرملة ومكناس وبين الأخيرة وفاس حيث كانت هذه هي الطريق التي يتوجهون من خلالها إلى الأمير الذي سيساعدهم وسيجزل لهم العطاء.

وقد كانت بلاد الغرب مسرحًا للاضطرابات والصدمات العنيفة التي تسبب فيها عبيد البخاري، مما أدى إلى فرض نفوذهم على منطقة الغرب كلها إلى حدود سنة ١١٤٩ هـ الموافق لـ ١٧٣٥م، وهي السنة التي

كان فيها القائد الحوات، وهو أحد القادة العسكريين في مشرع الرملة يمارس نفوذه على العبيد وبني مالك وسفيان، وعلى طليق والخلط وما بين ذلك من المناطق وفي سنة (١١٥٥هـ/ ١٧٤٠م). نهض العبيد مرة أخرى من مشرع الرملة إلى قبيلة سفيان وبني مالك، فهربوا منهم بناحية البحر بقرب ضريح أبي سلهام، فتبعتهم الجيوش وأوقعوا بهم وقعة هائلة، على أن أعنف الاصطدامات والصراعات في بلاد الغرب هي التي كانت بين عبيد مشرع الرملة وقبيلة بني حسن المجاورين لهم، و يعد ذلك من أقوى الأسباب التي جعلت العبيد يخربون معسكرهم ويخرجون من المنطقة[٢٨]. ولما ارتحل العبيد من مشرع الرملة سنة (١١٥٩هـ /١٧٤٦م)، في ولاية المولى عبد الله ابن إسماعيل الرابعة خلفهم بنو احسن فيها النهب والتخريب.

يقول الناصري متحدثًا عن هذه الفترة الحرجة في تاريخ الموقع: "كان مآل هذا العسكر البخاري من أولاد أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله مثل مآل الترك مع أولاد المعتصم ابن الرشيد العباسي في كونهم استبد عليهم وساروا يولون ويعزلون ويقتلون ويستحيون، إلى أن تم أمر الله فيهم وتلاشى جمعهم وتفرقوا في البلاد شدر ومدر، وما أحياهم إلا السلطان المرحوم المولى عبد الله، ولما عفو وكثروا خرجوا عليه من جديد، وعينوا حاكما لابنه المولى يزيد وفعلوا فعلتهم التي فعلوها من قبل..."[٢٩].

وهكذا استولد عن الصراعات حول السلطة، تحالفات وصراعات بين كل طرف ومجموعة من القبائل أو القيادات، وكان من بينها أحيان تحالفات وصراعات بين عبيد الرمل وبني احسن وقبائل الغرب ككل، وكان من نتائجها كذلك تغيير المواقع الترابية لكل قبيلة واندماج أو التحاق بعضها بالبعض الآخر.. ونذكر كمثال على ذلك ما دار من حرب بين السلطان المولى عبد الله المولى المستضيء، يقول الناصري بهذا الصدد:" أخذ المولى المستضيء في لمة من وجوه العبيد إلى مشرع الرملة ، فجهز بها ١٠٠٠٠ آلاف فارس من عبيده ووفاه قاسم أبو عارف بمثلها من بني احسن..ثم صاروا لاعتراض السلطان، أي السلطان المولى عبد الله الذي كان عائدا من طنجة بعد حربه ضد أحمد الريفي، حيث لم يكن يعلم السلطان بذلك، وانهزم بنو احسن وولوا الأدبار، وهزم المولى المستضيء وفر إلى بني احسن وانتهت منهم أكثر من ٥٠٠٠ فرس، ومن السلاح مثل ذلك وهذه الواقعة هي التي خضعت شوكة بني احسن."[٣٠]

وارتباطًا بالعمل السياسي السابق سيكون لضعف الموارد الاقتصادية والمالية، أي انقطاع وتقليص الإمدادات وعدم توصل الجنود برواتهم، الشيء الذي كان له الأثر البليغ على الأوضاع المنية والتنظيمية داخل الموقع ذاته، أو في علاقته بالسلطة المركزي وبالجوار البشري ونعني بذلك القبائل التي كانت تحيط بمشرع الرملة، كل هذه العوامل تكالبت على سكان هذا الموقع الشيء الذي أدى إلى التعجيل برحيلهم في مناطق متعددة من المغرب وبالتالي إخلاء هذا الموقع.

بالإضافة إلى أسباب أخرى أدت إلى إخلاء الموقع، منها توالي الأمراض والأوبئة التي حلت بساكني المشرع مما أدى إلى تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بشكل كبير بالمحلة. ويقول أحد شهود المرحلة الكاتب الفقيه المسناوي الرباطي الأندلسي:" كنت بمشرع الرملة حيث بويع السلطان مولانا زين العابدين بها، في تلك السنة كان ابتداء الوباء بمشرع الرملة، فلما رأيت ذلك انتقلت منها إلى مقري برباط الفتح حرسه الله"، وهكذا إذن وبعد حوالي سبعين سنة تقريبًا من إنشاء مركز مشرع الرملة سيتم إخلاؤه والرحيل عنه كلية عام (١١٥٩هـ/١٧٤٦م)[٣١].

يقول الضعيف متحدثًا عن هذا الرحيل: "وفي أوائل رمضان المعظم ١١٥٩ هـ وصل الخبر إلى فاس العتيق والجديد على أن مشرع الرملة قد خلى من العبيد الساكنين به وأنهم انتقلوا إلى مكناسة الزيتون وسكنوا بها وعملوا بها نوائل ومداشر، ورحلوا عن الرمل المذكور بنسائهم وذرا ريهم واستقروا بمكناس وأحوازها مع السلطان مولانا عبد الله ولم يبقى منهم بمشرع الرملة قليل ولا كثير والأمر للواحد القهار، وقد مكثوا بمشرع الرملة حوالي ٦٨ سنة، إلى أن أخرجتهم قبائل بني احسن وضيقوا بهم الأرض حتى أنهم كانوا يفزعون من حس الريح إذا كان قويًا"[٣٢].

هكذا خربت بناءات هذه المعلمة، وراح بنوا حسن يحملون أخشابها وأشياءها المختلفة إلى سلا لتباع في أسواقها،[٣٣] يقول الزياني في هذا الصدد: "وهكذا وقع للمحلة بمشرع الرملة، لما ارتحل عنها العبيد أغار عليها بنو احسن وكل ما وجدوه بها متأخر نهبوه وأخذوا جميع ما كان ثقل عليهم حمله، ظن منهم يرجعون إليه وامتدت أيديهم لتخريب الدور وحمل أبوابها وخشب سقفها لسلا يباع بها (....) فخربوا ذلك كله ولم يتركوا به إلا الجدارات القائمة"[٣٤].

وهكذا وبعد أن كان مشرع الرملة مكان تعيش في كنفه مجموعة بشرية غير يسيرة تحول في ظرف وجيز إلى خراب، بعدما كانت بنايته تمتد لعدة كيلومترات، زد على ذلك تولي سلاطين ضعاف على رأس هرم الدولة العلوية، الشيء الذي أدى إلى عدم وصول الإمدادات والمؤن إلى العبيد بمشرع الرمل، حيت ستكون لهذه العوامل الأثر البليغ على جيش البخاري الذي عجل برحيله عن المنطقة.

خَاتِمَةٌ

لقد استطاع المولى إسماعيل بفضل حنكته العسكرية والسياسية أن يتحكم في جيش عبيد البخاري وفق أهدافه، وذلك بعدما انتزع منهم عصبيتيهم القبلية، وحاول إدماجهم ضمن الحياة العسكرية وما تتطلبه من صبر وجلد، إلا أن هذا لم يستمر طويلا بعد وفاة هذا السلطان حيث عات هذا الجيش فسادا وخرابا بكل المناطق المجاورة للمشرع وعلى طول الطريق نحو العاصمة مكناس، مستغلاً في ذلك تولي سلاطين ضعاف على حكم الدولة العلوية، الشيء الذي أدى الى إخلاء هذا الموقع واندثاره بشكل تام، فبقدر الحسنات التي كانت لهذا الموقع خلال الفترة الإسماعيلية والمتمثل في استتباب الأمن الداخلي وردع الهجوم الخارجي، ودعم السلطة المركزية للمخزن، فقد كانت له مساوئ كثيرة كذلك، خاصةً بعد وفاة صاحب الفكرة والمشروع ألا وهو السلطان المولى إسماعيل، حيث بوفاته كانت نهاية ميلاد أفضل وأنجح تجربة عسكرية شهدها المغرب الحديث، والمتمثلة في معسكر مشرع الرملة الذي قدم خدمات جليلة لأمن واستقرار المغرب لمدة تقارب عقدا من الزمن، بل وتعد هذه التجربة فريدة من نوعها في تاريخ المغرب وبلدان العالم الإسلامي والمتمثلة في تكوين جيش من العبيد السود، حيث لا تماثلها سوى تجربة الإمبراطورية العثمانية مع الجيش الانكشارية.

الإحالات المرجعية:

(١) مكان جمع فيه المولى إسماعيل عبيد البخاري وعائلاتهم في الغرب بالمحلة قرب سيدي سليمان ومنه يوزع العبيد على الحاميات ويرجعون إليه دوريا، وقد بلغ عدد العبيد المسجلين في هذا المركز آخر أيام مولاي إسماعيل حسب الزياني ٩٠ ألفا، انظر الضعيف محمد بن عبد السلام بن أحمد الرباطي، **تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان١٦٣٣م – ١٨١٢**، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي، المجلد الثاني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧، ص:٢١٢.

(٢) مصطفى البوعناني، مشرع الرملة، **منوعات محمد حجي**، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨، ص:٢٣٣- ٢٣٥.

(٣) أشار الأستاذ أحمد قدور في مقال موسوم بـ **"المواقع الوسيطية المندرسة بجهة الغرب الشراردة بني احسن مرج الحمام نموذجا"**، إلى هذا الموقع لكنه نسبه إلى الفترة الوسيطية، مع عدم التحديد للموقع الحقيقي القريب من الديوان بمشرع الرملة.

(٤) هاشم العلوي، **مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر**، دار الآفاق الجديدة، ١٩٨١، ص:٣٤.

(٥) محمد المهناوي، **مشرع الرملة، في سياق مقاومة ساكنة الغرب للغزو النصراني للقرنين ١٧م- ومطلع القرن ١٨م**، صص: ١٠٠-١٠١. **ضمن ندوة الحركة الوطنية والمقاومة بمنطقة الغرب، القنيطرة سيدي قاسم، أيام ١٨ و١٩ و٢٠ مارس ١٩٩٨.**

(٦) محمد المهناوي، **مشرع الرملة، في سياق مقاومة ساكنة الغرب للغزو النصراني للقرنين ١٧م- ومطلع القرن ١٨م**،م س، صص: ١٠٠-١٠١.

(٧) عبد اللطيف الشاذلي، **الحركة العياشية حلقة من تاريخ المغرب خلال القرن ١٧**، ١٩٨٢، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة اطروحات ورسائل ١٠، ص:٢٣٥.

(٨) محمد المهناوي، م س، ص١٠١.

(٩) عمار حمداش، موقع مشرع الرملة خلال العهد الاسماعيلي، **ضمن أعمال الندوة الدولية، المواقع الأثرية في الغرب، بين البحث العلمي والبعد التنموي، ٢٠٠٥**، ص:٩٦.

(10) Michaux Bellaire, Edouard, **Villes et tribus du Maroc, document et renseignements publiés Sous les auspices de la résidence générale par la mission du Maroc**, Rabat et sa région Tome III, les tribus, éditions Ernest Leroux, Paris, 1920. p 261.

(١١) عمار حمداش، موقع مشرع الرملة خلال العهد الاسماعيلي، **ضمن أعمال الندوة الدولية، المواقع الأثرية في الغرب، بين البحث العلمي والبعد التنموي، ٢٠٠٥**، ص:٩٦.

(١٢) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة اخلاء آسفي وأزمور (قبل ٢٨ غشت ١٤٨١ – أكتوبر ١٥٤١)**، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٤، ص:138

(١٣) بن الطيب محمد القادري، **نشر المثاني في أخبار ملوك القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي ـ احمد التوفيق، ج ١، ص: ١٤٠ ـ ١٤٢.

(١٤) الريفي عبد الكريم بن موسى، **زهر الأكم**، دراسة وتحقيق أسية بنعدادة، مكتبة الصور الجميلة، الرباط، ص: ٣٠٢ ـ ٣٠٣ الضعيف الرباطي، ص:٢٦.

(١٥) محمد المهناوي، م س، ص١٠١.

(١٦) المعداني، الروض اليانع، خ ع ج ٦، ص:٢٤٢.

(١٧) عمار حمداش، **موقع مشرع الرملة خلال العهد الإسماعيلي**، م س، ص: ٩٨.

(18) Aubin Eugène. **Le Maroc d'aujourd'hui**,Libraire Armand Coline. Paris ,9éme édition 1922, p : 177.

(١٩) كان المولى إسماعيل يعتمد قبل ذلك على جيش الأوداية الذي كان يضم أهل سوس وأولاد مطاع، والشبانات والمغافرة. **انظرالزياني** أبو القاسم، **البستان الظريف**، ص:١٤٩ ـ ١٥٠.

(٢٠) أحمد عسه، **المعجزة المغربية**، دار القلم، الطبعة الاولى١٩٧٥، ص:٨٩.

(٢١) الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى**، الجزء السابع، تحقيق جعفر الناصري ومحد الناصري دار الكتاب، الدار البيضاء،١٩٩٧، ص: ٥٦.

(٢٢) هناك من جعله ٣٠,٠٠٠ فردا، ذكورا وإناثا صغارا وكبارا، محمد أكنسوس، **الجيش العرمرم الخماسي**، ج١، ص:١٢٦-١٢٧.

(٢٣) أحمد بن خالد الناصري، ج ٧، م س، ص: ٥٧.

(٢٤) المهدي الكراوي" **دور العبيد في الصراع على الملك**"، جريدة المساء، ٠٨-٠٧-٢٠٠٨.

(٢٥) انظر حول الأسباب الأخرى: المصطفى البوعناني، **مشرع الرملة**، م.س.ص:٢٣١

(٢٦) الضعيف محمد بن عبد السلام بن أحمد الرباطي، **تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان١٦٣٣م – ١٨١٢**، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي، المجلد الثاني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ /٢٠٠٧، صص:١٥٢-١٥٣.

(٢٧) عاش المغرب طيلة السنوات الثلاثين، التي أعقبت موت المولى إسماعيل أزمة سياسية وعسكرية، انعكست آثارها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. فقد تنازع أبناء المولى إسماعيل على السلطة ابتداءً من سنة ١٧٢٧م. واستغلّ جيش البخاري هذا التدهور والضعف، فتزايد نفوذه وقوّاده. وأصبحوا يتدخّلون في شؤون الحكم. كما تخلى هذا الجيش عن قصباته، وأصبح يغير على القرى والمدن، وينهب السكان. وواكبت هذه الاضطرابات السياسية والعسكرية، بعض الكوارث الطّبيعية. ترتّب عن هذه الأزمات العسكرية، والسياسية، والطبيعية، مصاعب اجتماعية واقتصادية خطيرة.

(٢٨) ميلود سوالمة، **مشرع الرملة**، بحث لنيل الاجازة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، الموسم الجامعي، ٢٠٠٩/٢٠١٠، ص:٣٥.

(٢٩) أحمد بن خالد الناصري، ج٧، م س، ص: ١٣٦.

(٣٠) أحمد بن خالد الناصري،ج ٧، م س، ص: ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٣١) ميلود سوالمة، م س، ص:٣٨.

(٣٢) **تاريخ الضعيف**، م س، ص: ١٣٧.

(٣٣) نفسه: ١٣٧.

(٣٤) أبو القاسم الزياني، **البستان الضريف في دولة مولاي علي الشريف**، تحقيق رشيد الزاوية، مطبعة المعارف الجديدة، ١٩٩٢، ص:٣٤٩-٣٥٠.